

Women, Water and Memory: Recasting Lives in Palestine

Nefissa Naguib

Leiden and Boston: Brill, 2009. 173 pages.

الشرق الأوسط والعالم الإسلامي"، ويحررها باحثان بارزان في هذا الميدان هما مارغو بدران وفالنتين مُقَمَّم. كانت أنابيب المياه وصلت إلى تلك القرية العُقل في سنة 1985، فأنهت الحاجة إلى ذهاب النساء يومياً إلى النبع بحثاً عن الماء. وتبدأ المؤلفة بحثها في سنة 1995، أي في فترة أوصلو، فتروي ثماني قصص حية توضح من خلالها أن الكلام على المياه والطريقة التي كانت تُدبّر بها يفسح المجال لاستكشاف "عالم من النشاط، وأنظمة المعنى، والهويات الاجتماعية والثقافية المترابطة" (ص 3 - 4).

تحكي النساء كيف حاولت أجيال شابة مدينية جامعية إقناعهن بأن مياه الأنابيب تمثل تقدماً. غير أن تجربتهن الخاصة مع انتهاء عهد العمل الشاق في جلب المياه لم تكن يمثل هذه السهولة واليسر قط، ذلك بأن تدبّر أمر المياه كان يعطيهن دوراً محورياً في بنية الجماعة وعملها، دوراً يعترف به الرجال وتقخر به النساء. فالنساء يتذكرن دورهن في إحضار الماء من النبع بأنه كان يمنحهن مكانة في المجتمع، ويجلب لهن الاحترام داخل الجماعة. هكذا يغدو نبع القرية في هذه القصص الحية "موقعاً من مواقع الذاكرة"، على حد تعبير بيير نورا. وتتذكر النساء هذا المكان بصفته مكاناً أساسياً ومركزياً في حياتهن، إذ كُنَّ يمضين هناك وقتاً طويلاً، في مسيرهن إلى النبع، وفي انتظار دورهن عنده، وفي عودتهن بالجرار المملأ، فكان النبع بذلك مكاناً للثروة، وترتيب الزيجات، والاعتسال والاسترخاء بعيداً عن الرجال: "ما إن تضع امرأة جرتها على رأسها حتى يحسب الرجل أنها ذاهبة كي تقوم بعملها المنزلي. لكننا كنا نقوم أيضاً بأمر آخرى نحبها" (ص 107). ونتيجة تمديد أنابيب المياه، ربما تكون تلك المهمة الشاقة قد رُفِعَت عن كاهل النساء، لكن شيئاً لم يحل محل وظيفتها الاجتماعية التي كانت تمنح النساء دوراً عاماً قيماً

هذا الكتاب الأسر، بنثره الحي الذي يستعيد أجواء وروائح ومذاقات قريبة لا اسم لها على التلال خلف رام الله، يتفحص حياة النساء "كما تم عيشها" في تلك القرية من خلال سرديات استخدام المياه التي تتخذ نقطة انطلاقها جُلب المياه من النبع. هكذا يقدم هذا الكتاب نقداً "جنوسياً" للتحديث في جماعة ريفية فلسطينية عاشت عقوداً تحت الاحتلال العسكري، أسوة بغيرها من الجماعات الفلسطينية. تشكل سيطرة إسرائيل على موارد المياه الفلسطينية عقبة أساسية تعترض السلام والعدالة، الأمر الذي يجعلها محل نقاش على مستوى سياسي واقتصادي رفيع تدفعه إحصاءات تنموية مهمة لكن بلا جدوى. وتبين المؤلفة، من خلال مقارنة جنوسية تتوسل منهجية القص الحي، أن المستويات البسيطة ترخر بكثير مما يمكن أن نعرفه عن تأثير المياه في حياة الفلسطينيين. وهي إذ تكتب "مع هؤلاء البشر وليس ضدهم" (ص 20)، إنما تسير على خطى باحثات على غرار هيلما غرانكفيست وليلى أبو لغد وروز ماري صايغ اللواتي شددن على فاعلية النساء. فقد ركزت هيلما غرانكفيست، التي عملت في فلسطين قبل ثمانية عقود، على "طرائق النساء في النظر إلى الأمور" بدلاً من أن تطبق عليهن ما في الكتب المدرسية من مصطلحات ثابتة، ذلك بأن الاستماع إلى سرديات النساء لا يضيف شيئاً من اللون على القصة الأساسية فحسب، بل يمكن أن يعقد ما لدينا من ضروب الفهم التقليدية ويتحداها أيضاً.

سبق أن كتبت المؤلفة، وهي الأستاذة المشاركة في الأنتروبولوجيا ودراسات التنمية في جامعة أوصلو، في موضوعات شتى تتعلق بالنساء والأقليات وسياسات الذاكرة، وصولاً إلى كتابها الذي صدر مؤخراً عن الشتات الأرمني. أما كتاب "النساء والمياه والذاكرة" فقد نُشر كجزء من سلسلة وضعها كتاب تتداخل فروعهم المعرفية وتصدرها برل (Brill) بعنوان عام هو "النساء والجنوسة:

داخل الجماعة، ذلك بأن سيطرة النساء على تدبّر مياه المنزل كانت توفر لهن ضربة من الروتين والبنية، وسبباً في أن يكنّ خارج البيت – وخسارة ذلك كله كانت خسارة فادحة. وبات دفع فواتير المياه، أو العجز عن دفعها، أو انتظار إسرائيل كي تعيد المياه بعد قطعها، وهي الأمور التي كان ينظر إليها باحثو التنمية على أنها مشروع تحرري، أصبحت سبباً آخر من سبل سيطرة الاحتلال على النساء (ص 156).

وكانت روز ماري صايغ، في الموقع الذي كان لها في شبكة الإنترنت بعنوان: أرشيف صوت النساء، أسدت نصيحة كانت استمدتها من تجربتها، وهي نصيحة تبدو بديهية، لكن غالباً ما يجري

تجاهلها: "إن لم يكن لديك الأسئلة الصائبة، فلن يفضي لك الناس بشيء." وكتاب "النساء والمياه والذاكرة" هو ثمرة وقت صرفته الكاتبة مع النساء تفكيراً في الأسئلة الصائبة التي يجب طرحها، فكان ذلك ما خرجت به من تفحص ثاقب ومثير لما تنطوي عليه تجارب التنمية من ضروب التعقيد بالنسبة إلى النساء وما لديهن من أفكار عن حياة الجماعة وأفرادها تحت نير الاحتلال الأجنبي.

إيزابيل همفريز

أجرت بحثاً في سياسات

الذاكرة بين اللاجئين

الفلسطينيين في الجليل

من أجل نيل الدكتوراه

(* المصدر: *Journal of Palestine Studies* 155, vol. XXXIX, no. 3 (Spring 2010), pp.

88-89.

ترجمة: نائر ديب.